مجلة حوليات التراث
Revue Annales du Patrimoine
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

الأدب في خطر لتزفيتان تودروف
قراءة في ضوء نظرية نقد النّقد

Literature in danger by Todorov
A re-reading through the lens of metacriticism

د. حكيم بوغازي
جامعة مستغانم، الجزائر
hakim.boughazi@univ-mosta.dz

تاريخ الاستلام: 2024/7/27 - تاريخ القبول: 2024/8/21

24
2024

الإحالة إلى المقال:
* د. حكيم بوغازي: الأدب في خطر لتزفيتان تودروف قراءة في ضوء نظرية نقد النّقد، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الرابع والعشرون، سبتمبر 2024، ص 45-59.

BY-NC-ND

http://annalesdupatrimoine.wordpress.com

***

مجلة حوليات التراث، العدد 24، 2024، ص 45 - 59
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

الأدب في خطر لتزفيتان تودروف
قراءة في ضوء نظرية نقد النّقد

د. حكيم بوغازي
جامعة مستغانم، الجزائر

الملخّص:

إنّ الحديث عن أدبيّة الأدب وجمّالية النّقد وسعة مدارك البلاغة داخل النّص الأدبي، يدعو إلى إعادة الكتابة والقراءة من منظور خارجي لا للنّص فحسب بل للمَناص والمُشاكلة النّصية، وهو أمر قد يصعب على المتتبع لهذا الأمر بعد ظهور تيارات أدبية ومناهج نقدية أثّرت بشكل وبآخر على إنشاء النّص وقراءته ونقده. إنّ ممارسة فعل القراءة لا يخضع إلى ميزان الرّقابة بقدر ما هو خاضع لميزان النقد، الأمر الذي من شأنه أن يصنع لنا مجالا أرحب للممارسة النّقدية التي تفضي حتما إلى ميلاد نصوص أخرى، قد تخاز إلى معطيات أدبية تمّت الإحاطة بها مسبقا. لقد جنح تودروف إلى تبني مقاربة نوعية ذات حسّ نقدي ينبني على معيارية الأدب وسلوك متلقّيه سواء في مدارس التّعليم أو خارج التّأطير، ولعلنا نعود إلى قراءته من جديد بعد أعوام عديدة من صدوره إلى عدّة اعتبارات نراها جديرة بالبحث في راهننا المعاصر. وتأسيسا على ما سبق، فإنّ الإشكال الذي يطرح نفسه هو كيف لنا أن نحدّد معالم الدّرس الأدبي الذي يرسم الجمالية ويؤثّث لمنظور نقدي جديد عند تودروف، هل لّنا أن نحوّل مسار الأدب إلى ما دعا إليه تودروف سعيا إلى تثبيت حقيقة الأدب وخصوصيته؟ كيف نعيد قراءة الواقع التعليمي التعلّمي الأدبي.

الكلمات الدالة:

أدبيّة الأدب، نقد النقد، تودروف، القراءة، الممارسة النقدية.

Literature in danger by Todorov
A re-reading through the lens of metacriticism

Dr Hakim Boughazi
University of Mostaganem, Algeria

Abstract:

The discussion surrounding the literariness of literature, the aesthetics of critique and the rhetorical complexity hidden in literary texts necessitates a fresh examination from an external vantage point not merely of the text itself but also

تاريخ الاستلام: 2024/7/27 - تاريخ القبول: 2024/8/21
hakim.boughazi@univ-mosta.dz
© جامعة مستغانم، الجزائر 2024

of its accompanying materials and imitative works. This attempt may prove challenging for those invested in this field, given the proliferation of literary movements and critical methodologies that have shaped the creation, interpretation, and evaluation of texts. While reading is not subject to censorship in the same way as criticism, the latter exerts a profound influence on the former, expanding the scope for critical analysis and inevitably giving rise to new texts that build upon existing literary knowledge. Todorov's approach is characterized by a qualitative standpoint informed by a critical sensibility rooted in the normative understanding of literature and its reception, both within educational settings and beyond. His insights remain relevant today and warrant reconsideration in light of contemporary research questions. This raises the following inquiries: How can we define the main principles of literary education that both articulate aesthetic values and establish a novel critical framework in accordance with Todorov's lens? Can we redirect the trajectory of literature towards Todorov's ideals in order to reaffirm the truth and specificity of literary expression? How can we re-evaluate the literary landscape within education?

Keywords:

literariness of literature, metacriticism, Todorov, critical analysis.

تمهيد:

إنّ الحديث عن أدبيّة الأدب وجمّالية النّقد وسعة مدارك البلاغة داخل النّص الأدبي، مدعاة إلى إعادة الكتابة والقراءة من منظور خارجي لا للنّص فحسب بل للمَناص والمُشاكلة النّصية، وهو أمر قد يعتاص على المتتبع لهذا الأمر بعد ظهور تيارات أدبية ومناهج نقدية أثّرت بشكل أو بآخر على إنشاء النّص وقراءته ونقده.

إنّ ممارسة فعل القراءة لا يخضع إلى سلطان الكتابة بقدر ما هو خاضع لميزان النقد، الأمر الذي من شأنه أن يصنع لنا مجالا أرحب للممارسة النّقدية التي تفضي حتما إلى ميلاد نصوص أخرى، قد تنحاز إلى معطيات أدبية تمّت الإحاطة بها مسبقا.

لقد جنح تودروف إلى تبنّي مقاربة نوعية ذات حسّ نقدي خاصّة في

كتابه: "الأدب في خطر" والذي ينبني على معيارية الأدب وسلوك متلقّيه سواء في مدارس التّعليم أو خارج التّأطير، ولعلّنا نعود إلى قراءته من جديد بعد أعوام عديدة من صدوره، إلى عدّة اعتبارات نراها جديرة بالبحث في راهننا المعاصر المتعدّد الأقطاب الأدبية قراءة ونقدا.

لقد تمّ التّعامل مع الأدب في مرحلة من مراحل التّعليم (متوسط-ثانوي-جامعي-أكاديمي) بنوع من الإجحاف العملي، الأمر الذي نراه في نصوص مبثوثة للطلبة والقرّاء أو مناهج دراسية، لا تصنع من جمال الأدب إلاّ حيّزا مغناطيسيا ينجذب إلى حدود تراكمية بحتة، ثم إنّ المناهج المكثّفة ذات الحقول المتباينة والمتباعدة نزعت عن الأدب ونصوصه جماليته وشعريته وتأثيره المتفنّن.

إنّنا نحاول في هذه الورقة البحثية فهم متعلّقات الموضوع وأسباب تناوله بهذه الطريقة الفجّة، ثم كيف نستطيع أن نقرأ وفقا لنقد النقد هذا المنحى التصاعدي الذي وسمه تودروف بالخطر، وهو استشعار وتنبيه إلى ضرورة العودة إلى الأدب الذي يصنع الذات والحياة على حدّ تعبيره، كما أن سلطة اللّغة البانية للخطابات الأدبية لابد وأن تفجّر الدلالات الكامنة بعد تحييد المغاليق.

ولئن سعى كثير من الباحثين إلى جعل نقد النّقد فعلا يتحقّق وفق راهنية التّحقيق والاختبار بعد ترتيب المادة النقدية وتنضيدها، فإن تودروف حاول أن يستجلب قراءة جديدة تحقّق النّص وتختبر الخطابات، ومن ثَمّ تلازم تنضيد وتعضيد الممارسة النقدية في شكلها التمايزي البحت، الذي يصنع شكلا أدبيا مؤثرا في المَناص.

إنّ فعل التغيُّر والتغيير الذي يَنشده تودروف يتعلّق بفعل القصدية للتعليم الأدبي، وعدم اقترانه بإعادة الإنتاج والاستنساخ، علّه أن يكون مدعاة لحوار بين الجميع بناء على الممارسة بالفعل لا بالقوة، وهي حقيقة قارّة في نواحي الأدب قد تم الاستغناء عنها لدواعي ممنهجة قد تحتاج إلى إعادة قراءة لكل المناهج الدراسية مهما كان نوعها.

وتأسيسا على ما سبق، فإنّ الإشكال الذي يطرح نفسه على محكّ النظر

ههنا قد يبدو شكليا مبتذلا، ولكنه في صميم الأمر إشكالا لا يستحق وسما آخر بعد أن نعته أحد أساطين النّقد المعاصر بالخطورة، وعليه فكيف لنا أن نقرأ هذه الخطورة استنادا إلى معطيات الدرس الأدبي السكولائي - إن جاز لنا التعبير - وغيره، ومن ثمّ كيف لنا أن نحدّد معالم الدّرس الأدبي الذي يرسم الجمالية ويؤثّث لمنظور نقدي جديد، هل لّنا أن نحوّل مسار الأدب إلى ما دعا إليه تودروف سعيا إلى تثبيت حقيقة الأدب وخصوصيته؟

هذه جملة من الأطاريح التي تنبني عليها هذه الورقة، والتي تتعالق بصفة استشرافية إلى حدود التّبئير المنهجي تحقيقا لمقصد الأدب، فثمّة تمفصل نقدي بين غاية الاستعمال وحقيقة التأويل؛ بين استعمال النّص بقصد القراءة وتأويل النّص بغاية تعدّد القراءات، فهُموم الخطابات التي تناثرت على الأوراق أو تلك التي قيلت على المنابر، لا بدّ من قراءتها وصفا لا تاريخا، بالعودة إلى المساقات ذات المرجعية البانيّة للخطابات ولغتها في بعدين جوهريين: الانتماء والممارسة الجمالية.

وجملة الأمر فإننا نتغيّا بداية الحديث عن سيرة ومسيرة الرجل الفذ في تعاطيه مع الأدب كمكون قيمي للذات البشرية، ثم نلج إلى بنية التأسيس المنهجي الذي ارتضاه تودروف موئلا في كتابه "الأدب في خطر" وكيف صنع هذه العتبة الاصطلاحية ذات الأبعاد الدوكسولوجية المتعدّدة الأقطاب ثم نأتي إلى الاستشراف التجديدي الذي أراده تودروف بعد إعادة فهم الأدب كتابة ورسالة.

1 - تودروف سيرة ومسيرة:

تازفيتان تودوروف[1] (**Tzvetan Todorov**) السيميائي، والناقد الأدبي والمؤرخ، والأنتروبولوجي والباحث عن التحوّلات والتمزّقات الثقافية للحقبة ما بعد الشيوعية. وبالرغم من تكتّمه فهو يعدّ ذاكرة للقرن العشرين وراصداً للقرن الواحد والعشرين.

ولد تودوروف سنة 1939م بصوفيا ببلغاريا، وقضى طفولته في ظلّ نظام

شيوعي منحه المناعة الدّائمة ضدّ كلّ ما يتعلّق بالسياسة، فبعدما كان قائدًا قديمًا لـ"الرواد الصغار" بمدرسته، تراجع عن "قناعاته" النضالية بالثانوية الروسية مزدوجة اللغة بالعاصمة سنة 1953م، كما اختار دراسة الأدب (البلغاري) في بحث تخرّجه، وهي طريقة ذكيّة للعودة إلى الأسلوبية من أجل الإفلات من القيود الإيديولوجية، إضافة إلى أنه شغف بشعرية الفولكلور والخرافات والأغاني الشعبية بعيداً عن عيون مراقبي الحزب.

أطروحته للسلك الثالث التي نوقشت سنة 1966م، فقد درس فيها ما قدمه اختيار الشكل الحواري للعلاقات الخطيرة لـ"كودرلوس دي لاكلوس" (1741م-1803م) (Choderlos de Laclos). نشر تودوروف 21 كتابا، بما في ذلك "شعرية النثر" (1971م)، "مقدمة الشاعرية" (1981م)، و"غزو أمريكا" (1982م)، "ميخائيل باختين: مبدأ الحوارية" (1984م)، "مواجهة المتطرف: الحياة الأخلاقية في معسكرات الاعتقال" (1991م)، "حول التنوع الإنساني" (1993م)، "الأمل والذاكرة" (2000م)، "والحديقة المنقوصة: تركة الإنسانية" (2002م). وكتاب "مدخل إلى الأدب العجائبي"، وكتاب "الأدب في خطر".

وقد ركزت اهتمامات تودوروف التاريخية حول قضايا حاسمة مثل غزو الأمريكيتين ومعسكرات الاعتقال النازية والستالينية. وقد عمل تودوروف أستاذا زائرا في عدة جامعات، منها جامعة هارفارد، ويل وكولومبيا وجامعة كاليفورنيا، بيركلي. تم تكريم تودوروف بأكثر من جائزة، من بينها: الميدالية البرونزية لويزار، و(Lévêque) تشارلز وجائزة موراليس وجائزة الأكاديمية الفرنسية وجائزة أمير "أستورياس" للعلوم الاجتماعية، وهو أيضا حاصل على وسام ضابط من قصر الفنون والأدب[2]. فارق الحياة بباريس يوم 7 فبراير 2017م، عن سنّ تناهز 77 سنة، بعد معاناة مع مرض التلف التدريجي للخلايا الدماغية.

2 - الإجراء المعرفي، الإبستمي لنقد النقد:

يرى "هانز جادمير" (Hans-Georg Gadamer) أنّ علاقتنا بالأشياء

علاقة فهم حينما يؤكّد على أنّها تنقل معنى وعلينا استعابه وإداركه"[3]، حيث يكون هذا الفهم والاستيعاب والإدراك اجراءً قصديا نحو التحديد الإبستيمي لمصطلح نقد النقد.

إنّ المُعطى الأولي الذي يرتسم في الذّهن بعد تحديد المركّب الاصطلاحي يوحي بوجود عمليتين متجاورتين في الفعل والقصد والإجراء، على أن تكون المحصّلة نتائج إضافية ترتهن إلى أسس اصطلاحية جديدة تنظّر لقواعد نصيّة أخرى.

وعلى هذا الأساس يعرّفه أحد الباحثين بأنّه "خطاب ما ورائي يرتهن وجوده بوجود خطاب آخر تتجسد وظيفته في شرح الخطاب الموضوع وتفسيره"[4]، وفي هذا إيضاح معرفي يتنزّل منزلة التّحرير والتّحويل داخل الوعي النقدي.

في حين يربطه جابر عصفور بالإبستيمية حين يقول "هو نشاط معرفي إبستمولوجي ينعكس معه النقد على نفسه ليختبر ويوضح الفرضيات التي يستند إليها المناهج والنظريات القائمة والمتوارثة"[5]، بناء على هيكلية ذاتية تعكس مصداقية القراءة وتخريج النصوص.

وغير بعيد عن طرح جابر عصفور ترى نجوى الرياحي بأنّه "خطاب يبحث في مبادئ النقد ولغته الاصطلاحية وآلياته الإجرائية وأدواته التحليلية"[6]، هذه الثلاثية التحليلية في حد ذاتها بحث عن الذات الفاعلة وفق نمط التعبير الصريح الذي يطاوع المصطلح من خلال أوجهه الإجرائية.

إنّ السياق الإجرائي الذي يُمارس فيه نقد النقد لا يكون بمعزل عن السياقات الخطابية ذات الأبعاد التفاعيلة التواصلية، أين يتحقّق التلاؤم بين الإجراء والنص ثم الممارسة والنقد، وهنا يتحقّق "توافق المستوى التصوّري الذهني مع الملكة،... فيتوافق الشكلي الذوقي الجمالي مع أصله التجريدي"[7].

وبالإجمال فإن أبسط تعريف يعود إلى أحمد شهاب حين يقول: "إذا وجد النقاد أنّ ثمّة قراءات تحتاج إلى قراءة ثانية وتقويم يحتاج إلى تقويم آخر مما

يصطلح عليه بنقد النقد وبذلك يكون هدف نقد النقد تمحيص النقد... وما دام النقد يتّسم بالصفة الإنسانية، فلا يوجد نقد لا يمكن مراجعته ونقده إذ يكون جوهر نقد النقد هو إدراك فضاء النص النقدي... ليقوم النص بصنع مكان وزمان جديدين ينتظران ذاتا قارئة تعيش اللحظة العبقرية"[8]، المائزة من حيث الاعتبار والوضع.

في حين يربطه محمد الدّغمومي بالبعد "الاتفاقي للاصطلاح... بما أن المصطلح هو السياج المعرفي الذي يختزل داخله جدليات ركحها أساس الحركة الذهنية المتصورية"[9]. فهو بهذا التقديم يرى بأنّه "بناء معرفي إجرائي وظيفي يعمل باستراتيجية واحدة وينتج معرفة تصب في مجرى المنهجيات وتعمل باستراتيجية ليست أبدا استراتيجية التنظير أو النظرية الأدبية أو النقدية، وإنما تستهدف من خلال معرفة طبيعة الممارسة النقدية - آلياتها - مبادئها - غاياتها - معرفتها"[10]، في حين يكون التمايز بعد هذه الرباعية آلية إجرائية تنزع منزع الإجرائي والوظيفي في إنتاج خطاب أدبي نقدي ينزاح عن الشعرية إلى الصناعة النقدية، الأمر الذي من شأنه فتح متصورات جديد للخطاب المؤسّس.

إنّ ميزة القراءة الثانية في كل مرّة "تعيد نقد الأفهام السابقة، وهو ما يجعلها منتجة لنص أو لنصوص هامشية تتحول مع شرط الوعي إلى نصوص مركزية... لا يتأتّى إلا عندما تستبق اللغة نفسها أي حينما تعطى كقوة محايثة لفعل الفهم نفسه"[11]، فمركزية النّص الهامشي المُؤسّس على فعل تجلي القراءة يعود ليشكل أساسا لقراءة ثانية تختلف مطالعها النصية من قارئ لآخر، حيث يكون لبنية الفهم العام اشتغالا حثيثا فكاً لرموز تمثلات النص الأول، وهكذا تنزاح الرؤية الهامشية عند نقد جديد يلامس أو يغاير القراءة الأولى.

3 - بنية التّأسيس الأدبي في كتاب تودروف:

تأسّس مفهوم الأدب عند تودروف على معطى نفسي وحسي واجتماعي بعيدا عن شعرية النّص التخييلي، ومتاخمة حدود الواقع، فثمّة تمفصل حقيقي يبثّ من خلاله النّاص كل الأشجان النفسية التي خبّأها مجابهة للزمن، يقول في

هذا الشأن: "أحسست بالحاجة إلى الاستئناس بمعطيات ومفاهيم علم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ، وبما أن أفكار المؤلفين قد استعادت كل قوتها فقد رغبت من أجل فهم أفضل لهم الغوص في تاريخ الفكر المتصل بالإنسان ومجتمعاته في الفلسفة الأخلاقية والسياسية"[12]، حيث يكون الإتيان على فهم الذّات المتّصلة بالنص ذاتا مفهومة ومحسوسة.

ثم إن المعطى الحقيقي الذي اتّخذه تودروف مألفا في مقدمة كتابه "الأدب في خطر" هو المعيوش الثقافي التي نزل لأجله فرنسا، والتمثلات الأدبية والمساقات المعرفية التي شكّلت فيما بعد تودروف الكاتب والناقد والمحلّل، فمن النّصوص الدالة على ذلك قوله: "لقد تلاشت أسباب اهتمامي الحصري بالمادّة اللّفظية للنّصوص، ومنذ تلك اللّحظة في أواسط السبعينيات فقدت الميل لمناهج التحليل الأدبي وتعلقت بالتحليل نفسه"[13]، وهنا وجب طرح التساؤل المنهجي الحقيقي عند تودروف وهو لماذا هذا التعلق بالتحليل فقط؟

يلحظ القارئ الحصيف أنّ تودروف ألزمنا بمزيد من قراءة نصوصه المتتابعة سعيا منه إلى إدراكنا الحقيقي بالإجابة عن التساؤل الماثل سلفا، إذ الإجابة ههنا ليست عبارة عن "استحضارات ذهنية تتجمع مع غيرها، لتؤلف موضوعا أكثر عمومية"[14]، بل هي أدوات إجرائية تخصّ طبيعة النص الأدبي الذي "لا ينشأ في الفراغ، بل في حضن مجموعة من الخطابات الحيّة التي يشاركها في خصائص عديدة"[15]، هنا يكمن سبب الاهتمام بالتحليل حين يكون مصاحبا للخطاب الحي الذي يملك روحا تشاركه التغيير.

وغير خافٍ أنّ تودروف لم يقف عند حدود تفضيله للتحليل فقط، بل بوّأ نفسه محبة للأدب حين يقول: "لو سألت نفسي اليوم لماذا أحب الأدب، فالجواب الذي يتبادر عفويا هو: لأنه يعينني على أن أحيا،... يجعلني أكتشف عوالم على اتصال بتلك التجارب ويتيح فهما أفضل لها... فالأدب أكثر إفصاحا وكثافة من الحياة اليومية... الأدب يفتح إلى اللانهاية إمكانية التفاعل مع الآخرين وهو إذن يثيرنا لا نهائيا، يزودنا بإحساسات لا تُعوّض، تجعل العالم الحقيقي أشحن

بالمعنى وأجمل... إنّه يتيح لكل واحد أن يستجيب لقدره في الوجود إنسانا"[16]، هذا الوجود الذي يصنع كينونة النص من رحم الإحساس.

وإذا كان الأمر على هذا النحو الذي ذكره تودروف من الإشارة إلى معاني حقيقية لتأثير الأدب، فإنه بذلك يزيد إلى وظائف اللّغة الستة وظائف جديدة أخرى تقترن بالحياة والاكتشاف، الإفصاح ثم لا نهائية المداليل فالتفاعل ثم الوظيفة الأكثر جمالا واتساعا هي الوجود الإنساني التعبيري وغير التعبيري ومن هنا صحّ لنا القول إن الأدب روح وجوهر[17].

لقد أفصح الغذامي عن مفهوم "المنهج" الصحيح والذي "لا بدّ أن يكون متمخّضا عن موضوعه مثلما هو أداة لاستكشاف ذلك الموضوع وهذا لا يتوفّر - أدبيا - إلا بواسطة التموضع النّصوصي أي أن يكون المنهج ذاته نصوصيا، ومن ثمّ فهو من جنس الموضوع ومن مادته وبالتالي فهو تفاعل معرفي مع النّص"[18]، فهذا التّفاعل والتموضع جعلا من تودروف يضع موضوعا خاصا، بل ويفرد فصلا خاصا سمّاه: "اختزال عبثي للأدب"[19] في إشارة إلى اللامنهج في التعامل السكولائي مع النصوص والخطابات الأدبية التي نُزع عنها الاعتراف بأدبيّتها والتي تمثّل حقا الوظائف السالفة الذكر، وهنا يصرّح: "إنّ فكرة عن الأدب مغايرة تماما توجد في الأصل"[20]، وهذه الفكرة هي في الحقيقة ما يريد دحضها ومحاولة تعرية أصلها في مباحث كتابه "الأدب في خطر" مستعينا بكل الأدوات الإجرائية التي تسعفه في هذا التحليل.

4 - آليات تجديد الممارسة والإجراء:

لا ينفكّ تودروف في كل مباحث كتابه - محور الدراسة - يُعرّي الواقع الأدبي، بل أعمق من ذلك حين يفضح المنظومات التعليمية التي لا تسمح في واقعها التعليمي بفهم أعمق للمجتمع، الأمر الذي تمثّله تودروف بقوله: "يقوم مجموع هذه التعليمات إذن على خيار: الهدف الأول للدراسات الأدبية هو تعريفنا بالأدوات التي تستخدمها تلك الدراسات، قراءة القصائد والروايات لا يسوق إلى التفكير في الوضع الإنساني والفرد والمجتمع والحب والكراهية والفرح واليأس، بل

للتفكير في مفاهيم نقدية تقليدية أو حديثة. في المدرسة لا نتعلم عن ماذا تتحدث الأعمال الأدبية وإنما عن ماذا يتحدث النقد"[21].

إنّ المحصّلة النهائية التي توقف عندها تودروف في هذا الاعتراف هي بمثابة تقرير صريح عن الوضع الأدبي: كتابة وقراءة نقدا ومنهجا، ففي نظر تودروف لا يكون الجزم بمعرفة المادة والمضمون في الأدب إلا بعد معرفة حس الذوق الفني لأي جنس أدبي، والحالة هذه فإنّ "فعل التأليف هو الذي يضمن للمؤلف استرسال علاقته بهذا النوع من القرّاء وإذا انعدم فهي إلى الموت أقرب"[22]، وهذا الذي تخوّف منه تودروف ونبّه إليه ناعتا إيّاه بالخطر.

وفي معرض حديث تودروف عن المناهج القرائية ومدى مقاربتها للنصوص، نجده يركز على فعل القراءة لا على المنهج، على الإفصاح لا على التمثلات والتدليل، فالنص المكثّف يستنجد بالقارئ بل بالذات القارئة وهذا ما يشير إليه بقوله: "أمن الواجب أن نجعل منها المادة الأساسية المدرّسة في المدرسة؟ كل موضوعات المعرفة هذه هي أبنيّة مجرّدة، ومفاهيم صاغها التحليل الأدبي لتناول الأعمال الأدبية؛ لا واحد منها يتعلق بما تتحدّث عنه الأعمال نفسها ومعناها والعالم الذي تستحضره"[23]، فهذا الاستحضار هو الغاية المثلى ليقينية الخطاب داخل الأجناس الأدبية، إنّه برهان الكشف الرمزي للذات الفاعلة والمدخل الأساس لنظام الفهم النّصوصي، ليس جدلا مبتذلا ولا لياً لعنق النّص بلّه فهما خاصا بنمط التأليف، فغاية الخطاب الإفصاح عن المكنون.

وتأسيسا على ما تم ذكره فإنّه من المؤكّد أن "يرسم النّص طبيعة العلاقة بين المتلقي والمؤلّف، وشروط استمراريتها، فهي علاقة لا تخبو حرارتها إلا إذا كفّ النّص عن كشف خباياه للقارئ[24]، وهنا توقف تودروف عند مصطلح الكشف الذي ربطه بالمآل النّصوصي للخطابات في قوله: "بل لا بد من التساؤل عن القصدية النهائية للأعمال الأدبية التي نوراها جديرة بالدراسة، عموما القارئ غير المتخصّص اليوم كما في الأمس يقرأ هذه الأعمال لا ليتقن بشكل أفضل منهجا للقراءة، ولا ليستمدّ منها معلومات عن المجتمع الذي أُبدعت فيه، بل ليجد

فيها معنى يتيح له فهما أفضل للإنسان وللعالم وليكتشف فيها جمالا يثري وجوده وهو إذ يفعل ذلك يفهم نفسه فهما أفضل"[25]، فلا ينفك الحديث عن الفهم داخل الدوائر الصغرى والكبرى للخطابات الأدبية، إنّه بذلك صناعة وفن.

إنّ فعل الاستطاعة الذي ركن إليه تودروف في كتابه محل الدراسة يظل مقترحا مفتوحا لتأويلات عديدة، لا تخرج في نهايتها عن مصداقية النص المفتوح للقارئ، وهو ما نقف عليه في قوله: "الأدب يستطيع الكثير، يستطيع أن يمدّ لنا اليد حين نكون في أعماق الاكتئاب ويقودنا نحو الكائنات البشرية الأخرى، ويجعلنا أكثر فهما للعالم ويعيننا على أن نحيا... للأدب دور حيوي يلعبه، لكنه ليكون كذلك ينبغي أخذه بهذا المعنى الواسع والقوي"[26]، فهذا المقترح الباني لسلطة القراءة والفهم لا يُستوعب إلاّ إذا كان الفهم والتأثير واضحا على القارئ، إذ لا يصح في ذهن تودروف أن تكون النصوص الأدبية المشحونة بالدلالات الإيحائية مصدر إزعاج للقارئ سيما وهو في سنّ أو موضع معين، فشرطها الأساس هو التغيير الحاصل بعد القراءة تذوقا.

ولا يتوقف تودروف عند حدود معالم مصطلحات التأثير والإفصاح والتكثيف والتذوق والتغيير، فتجده يسعى خلف مصطلحات أخرى أكثر عمقا من ذي قبل، إنّه يُقرن الأدب وصناعته بالروح الإنسانية الحيّة غايتها المُثلى العيش في أفق توقع صافٍ يختزل الذات البشرية في نص من نصوص الأدب الحقيقي، فيقول: "القارئ العادي الذي يستمر في البحث ضمن الأعمال التي يقرأها عن ما يمنح معنى لحياته هو على صواب ضد الأساتذة والنقّاد والكتّاب الذين يقولون له إنّ الأدب لا يتحدّث إلاّ نفسه أو لا يُعلّم إلاّ اليأس إذا لم يكن على صواب فسيكون محكوما على القراءة بالزوال في أجل قريب"[27].

قد يتوهّم بعض الدارسين لتودروف أنّه يريد غلق المناهج القرائية والنظريات الأدبية المعاصرة وغيرها، والتي كان أحد أعمدتها وصنّاعها، بل على العكس تماما من ذلك، إنّه يسعى إلى التوفيق بين الوسيلة والغاية، بين فهم التدريس وغاية التدريس، بين العمل الأدبي وتأثير الخطابات، بالأحرى بين

الصناعة والعمل، الأمر الذي جعله يؤكّد في قوله: "لا ينبغي بعد الآن أن يكون تحليل الأعمال الأدبية في المدرسة هو إيضاح المفاهيم التي استحدثها هذا العالم أو ذاك من علماء اللسانيات، أو هذا المنظّر للأدب أو ذاك، وإذن أن تعرض علينا النصوص بوصفها استخداما للغة أو للخطاب؛ هدف التحليل سيكون الوصول بنا إلى معناها... يلزم الانتقال من الأفكار إلى الفعل"[28].

إنّ مبدأ التّغاير الذي يقترحه تودروف يخضع حتما إلى مساءلة الخطابات الأدبية المعاصرة "على مستوى القراءة/الكتابة بين النص والقارئ على اعتبار أن كليهما يمتلك شروط الحياة والكينونة"[29]، حيث تسهم هذه الكينونة في التعاطي المباشر مع مبدأ الإصغاء إلى تفسير النصوص، فما يظنّه البعض على أنه غير أدبي يكاد يكون حاملا لرسائل لا تجدها في نصوص أدبية، إذ النّظر القاصر المشتّت يرى صورية النص باختزال.

وركنا على ما تقدّم من تحليل لطرح تودروف، فإننا لامسنا مسعاه الفذ في إعادة إحياء القراءة ضمن الدوائر المفتوحة سيرا على نمط أنّ لكل خطاب سيرورة عملية تجعله متفرّدا، وكل هذه الدوائر تلتقي عند الرسالة التي تركها في نهاية كتابه والتي جاء فيها: "إن موضوع الأدب هو الوضع الإنساني نفسه فالذي يقرأ الأدب ويفهمه سيصير لا متخصّصا في التحليل الأدبي بل عارفا بالكائن البشري"، ويضيف عبارة أخرى أشد اتساعا من هذه في قوله: "في هذا التواصل الذي لا ينفد القاهر للأمكنة والأزمنة يتأكّد المدى الكوني للأدب"[30]، فالأدب غاية الفهم والاعتبار وعنصر الاتصال والإفصاح.

خاتمة:

في خاتمة هذه الورقة البحثية هناك كثير من الملحوظات المهمّة التي لا بدّ من الإتيان على ذكرها والتأكيد على مشاركة القارئ إيّاها، ومنها:

- فعل التغيُّر والتغيير الذي يَنشده تودروف يتعلّق بفعل القصدية للتعليم الأدبي.
- المناهج المكثّفة (المدرسية والجامعية) ذات الحقول المتباينة والمتباعدة نزعت عن الأدب ونصوصه جماليته وشعريته وتأثيره المتفنّن.

- استشعار وتنبيه إلى ضرورة العودة إلى أدبية الأدب.
- ثمّة تمفصل نقدي بين غاية الاستعمال وحقيقة التأويل؛ بين استعمال النّص بقصد القراءة وتأويل النّص بغاية تعدّد القراءات.

وقبل العودة إلى أدبية الأدب أوصى تودروف بما يلي:

- الاستئناس بمعطيات ومفاهيم علم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ من أجل فهم أفضل لهم والغوص في تاريخ الفكر المتصل بالإنسان.
- الانتقال من مناهج التحليل الأدبي إلى التحليل نفسه.
- الأدب الحقيقي هو الذي يعين على الحياة كما يعين على اكتشاف العوالم، فالأدب أكثر إفصاحا وكثافة من الحياة اليومية.
- الاستحضار هو الغاية المثلى ليقينية الخطاب داخل الأجناس الأدبية.
- مبدأ التّغاير الذي يقترحه تودروف يخضع حتما إلى مساءلة الخطابات الأدبية المعاصرة.
- موضوع الأدب هو الوضع الإنساني نفسه فالذي يقرأ الأدب ويفهمه سيصير لا متخصّصا في التحليل الأدبي بل عارفا بالكائن البشري.

هذا ويبقى الكتاب مفتوحا على قراءات أخرى وفق منظور قرائي ونقدي يتماهى والبنيات المعرفية التي تشكل نصوص كتاب "الأدب في خطر" إذ لا بد أن نستشعر هذه العتبة المنهجية في وسطنا الأدبي ونعيد القراءة والنقد والتحليل.

الهوامش:

1 - ينظر، مليكة معطاوي: رباط الكتب، مجلة الأوان، مركز تواصل الثقافات.

2 - ينظر، جريدة العالم (Le Monde) الفرنسية ليوم 9 فبراير 2017م.

3 - خديجة غفيري: سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي، أفريقيا الشرق، 2012م، ص 26.

4 - محمد المريني: نقد النقد في المفهوم والمصطلح والمقاربة المنهجية، مجلة البيان الكويتية، العدد 452، 2008م، ص 40.

5 - جابر عصفور: قراءة في التراث النقدي، ط1، مصر 1994م، ص 22.

6 - نجوى الرياحي: الأسس النظرية لنقد النقد، مجلة مركز بابل للدراسات، ع121، جوان 2012م، ص 3.

7 - أسماء جموسي: المتصور والمصطلح، سلسلة أعمال وحدة البحث، ط1، تونس 2008م، ص 59.
8 - أحمد شهاب: تحليل الخطاب النقدي، عالم الكتاب الحديث، ط1، الأردن 2015م، ص 1.
9 - أسماء جموسي: المرجع السابق، ص 25.
10 - محمد الدغمومي: نقد النقد والتنظير العربي المعاصر، ط1، المغرب 1999م، ص 52.
11 - عمارة ناصر: اللغة والتأويل، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2007م، ص 95.
12 - تودروف: الأدب في خطر، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط1، المغرب 2007م، ص 9.
13 - تودروف: المصدر نفسه، ص 10.
14 - حسين الواد: رجيس بلاشير، المركز الثقافي للكتاب، ط1، المغرب 2019م، ص 50.
15 - تودروف: المصدر السابق، ص 10.
16 - نفسه.
17 - أضاف الغذّامي وظيفة أخرى للغة وهي الوظيفة النسقية بعد أن أضاف "hyms" وظيفة السياق ليكون الوظائف على النمط التالي: النفعية التعبيرية المرجعية المعجمية التنبيهية الشاعرية الجمالية. إضافة إلى استنتاجات تودروف هذه. ينظر، أسماء جموسي عبد الناظر: المتصور والمصطلح، ص 171.
18 - عبد الله الغذامي: تشريح النص، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب 2006م، ص 117.
19 - تودروف: المصدر السابق، ص 11.
20 - نفسه.
21 - المصدر نفسه، ص 12.
22 - خديجة غفيري: المرجع السابق، ص 206.
23 - تودروف: المصدر السابق، ص 13.
24 - خديجة غفيري: المرجع السابق، ص 206.
25 - تودروف: المصدر السابق، ص 15.
26 - المصدر نفسه، ص 45.
27 - المصدر نفسه، ص 43.
28 - المصدر نفسه، ص 53.

29 - عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ص 47.

30 - تودروف: المصدر السابق، ص 54-55.

References:

1 - Al-Daghmūmī, Muḥammad: Naqd an-naqd wa at-tanzīr al-ʻarabī al-muʻāṣir, 1st ed., Morocco 1999.

2 - Al-Ghudhāmī, ʻAbd Allah: Tashrīḥ an-nasṣ, Al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 2nd ed., Morocco 2006.

3 - Al-Marīnī, Muḥammad: Naqd an-naqd fī al-mafhūm wa al-muṣṭaliḥ wa al-muqāraba al-manhajiyya, Majallat al-Bayān, Issue 452, Kuwait 2008.

4 - Al-Riyyāḥī, Najwa: Al-usus an-nazariyya li naqd an-naqd, Majallat Markaz Babel li Al-Dirāsāt, Issue 121, Juin 2012.

5 - Al-Wād, Ḥusayn: Régis Blachère, Al-Markiz al-Thaqāfī li al-Kitāb, 1st ed., Morocco 2019.

6 - Ghafīrī, Khadīja: Sulṭal al-lugha bayna fiʻlay at-taʼlīf wa at-talaqqī, Afrīqiyya al-Sharq, Morocco 2012.

7 - Jamūsī, Asmāʼ: Al-mutaṣawwur wa al-muṣṭalaḥ, Silsilat Aʻmāl Waḥdat al-Baḥth, 1st ed., Tunis 2008.

8 - Journal le Monde du 9 février 2017.

9 - Maʻṭawī, Malīa : Ribāṭ al-kutub, Majallat al-Awān, Markaz Tawāṣl al-Thaqāfāt, 21-2-2017.

10 - Nāṣir, ʻAmmāra: al-lugha wa at-taʼwīl, Manshūrāt al-Ikhtilāf, 1st ed., Algiers 2007.

11 - Ouṣfūr, Jābir: Qirāʼa fī at-turāth an-naqdī, 1st ed., Egypt 1994.

12 - Shihāb, Aḥmad: Taḥlīl al-khiṭāb an-naqdī, ʻĀlim al-Kitāb al-Ḥadīh, 1st ed., Jordan 2015.

13 - Todorov, Tzvetan: Al-adab fī khaṭar (Literature in danger), translated by ʻAbd al-Kabīr al-Sharfāwī, Dār Tubqāl, 1st ed., Morocco 2007.